نصوص

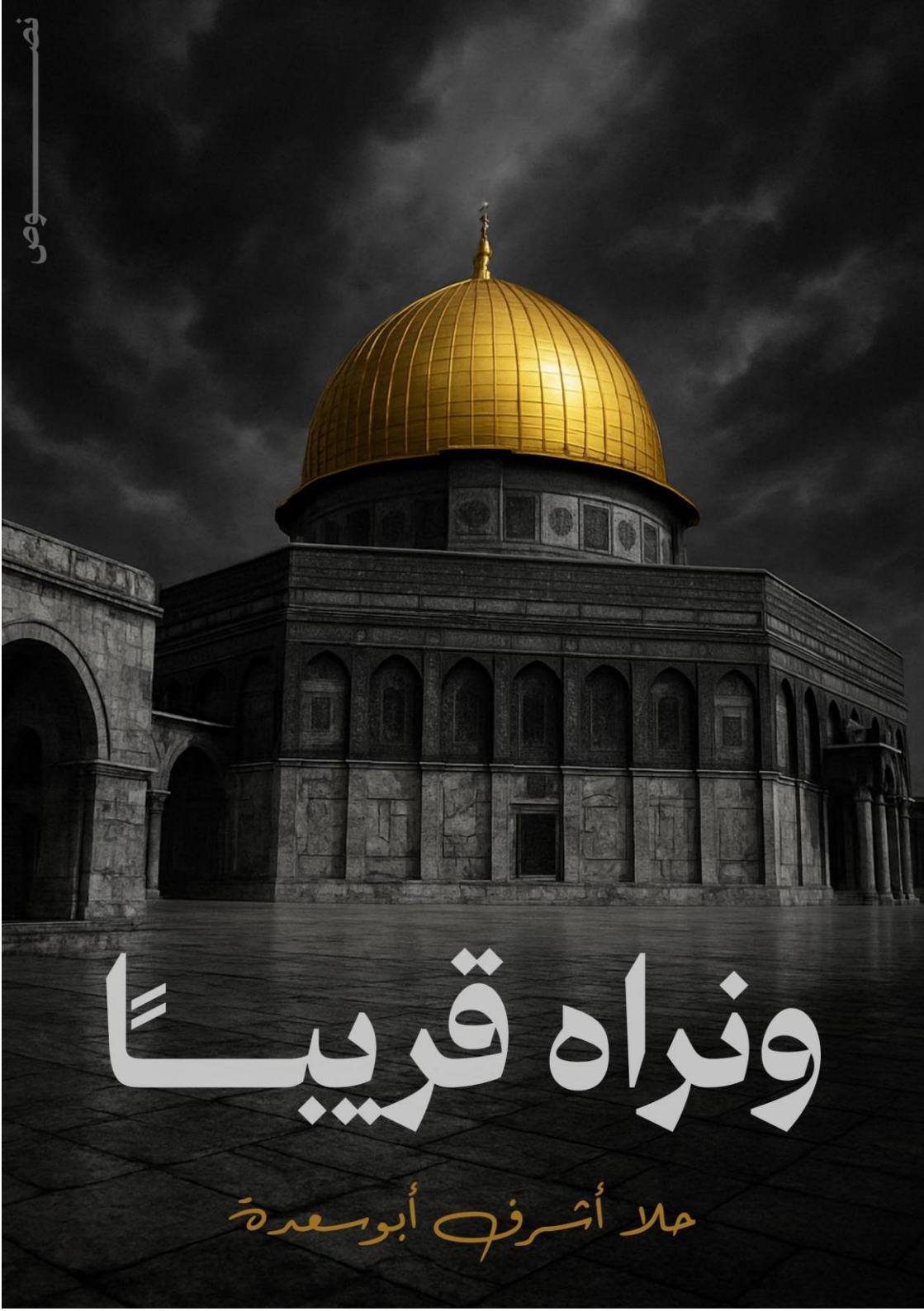

ونراه قريبًا

حلا أشرف أبو سعدة

ونراه قريبًـــــــا

حلا أشرف أبوسعدة

الكتـــــــــاب: ونراه قريبًا
تـــــــــأليف: حلا أشرف أبوسعدة
النوعيـــــــــة: نصوص وخواطر
صـــــــــدر: 2025م
مراجعة وتدقيـــق: مجد طلافحه

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلفة.

الفهرس

الشكر.....4
إهداء 5
نبذة.....9
الظروف العصيبة 10
ميثاق الظلم والعدوان.....17
السفينة.....22
رفح 27
كذبة الأوطان 35
السادس عشر من مايو 38
الخاتمة.....42

الشكر

أقدّم خالص شُكري وامتِناني لصديقتي الكاتبة مجد طلافحه، التي كانت لي دومًا يدًا تُمسك بي وتدفعني نحو النور، منذ أولى خطواتي المُتعثّرة، وحتّى هذا الإنجاز.

كما أُهدي امتناني لكل من مَدح كلماتي، أولئكَ الذين لا تغيبُ ذِكراهم عن قلبي، فهُم كنجومٍ وأقمارٍ أضاءوا عتمةَ دربي.

و إلى أخي العزيز عبد الحميد، الذي سخّره الله لي عونًا وسندًا في رحلتي، كل الحُب والامتنان.

إهداء

إلى كل أوطان المسلمين التي تدمر في العالم

"ونراه قريبـا"

إن كنت إنسانًا فلا تقلب الصفحة بفضول كالعادة

إن كنت عربيًا فلا تقلب الصفحة بنفس الهدوء

إن كنت مسلمًا فلا تقلب الصفحة إلا في سبيل الله

نبذة

أحاول بكل ما زوّدتني به الحرب، أن أبحث عن صياغة أكثر قبولًا لما يحدث، وعن وصفٍ لسنواتٍ عجاف أقحلت فيها الحواصل، وذوت فيها النفوس. سنواتٍ تجرّعنا فيها جمرات لا تزال تتأرجح في الحلق، فتحرق ما تبقّى من عقلانية وبشاشة. فلم يكن هذا الكتاب إلا سماءً تحلّق فيها أجنحة بعضٍ مما كَبَته خاطري.

الظروف العصيبة

أدركتُ مؤخرًا أن قسوة الأيام تُحجّم طاقة البشر وصبرهم على تحمّل أبسط الأمور، فمن النادر أن تجد إنسانًا بكامل وعيه في الظروف العصيبة، رغم أنه لا يفضّل الاعتراف بما يدور في ذهنه، إن كان هذا الاعتراف سينزع عنه قناع القوة.

ولكن، كونه آلةً طينيةً مليئةً بالفراغ والنقص، فلا بدّ له يومًا أن يقتلع هذا القناع بيديه، وهو يدرك ذلك، إذ لا يكون حينها في حالة وعيٍ كامل، بل غارقًا في جوف ظلامٍ مضغته الحياة حتى استسلم لسواده، دون أن يحاول الهروب كما كان يفعل حين يرتدي قناع القوة، ويبدو إنسانًا لطيفًا مفعمًا بالطاقة، حتى استُنزفت طاقته بالكامل.

ورغم أن كلمة واحدة قد تُنقذه من استسلامه لنفسه، إلا أنك ترى التعريفات البشرية قد سُلبت منه.

لكن يبقى تعريف القرآن الأبدي للإنسان مختلفًا عن أي تعريف بشري؛ إنه يُكرّم الإنسان كما ينبغي له أن يُكرَّم. وقد وصفه أحد كتب التفسير بأنه: "نفخة من روح الله، ولأنه كذلك، جعل الله الأصل الذي تجتمع عليه البشرية هو أصل العقيدة في الله".

فلا قوة حقيقية دائمة إلا ما يُستمد من الله.
نحن ملك لله، فيعرف من خلقنا خُطبنا وعَطبنا، هو الحيّ الذي يُحيينا إذا ما اشتدّت علينا حبال الأيام، هو من يحتضننا برحمته إن لجأنا لحوله من قسوة من حولنا. ينادينا: "يا عبادي"، فهل ننادي غيره؟

جرت الأيام أقدامنا إلى الجنوب، مُطأطئي الرؤوس، فرَمت بنا في خيام لا تغني عن سوء، كما تُلقى الجثث في الحفر، قد يظن البعض أننا هربنا من موت، أو بحثنا عن حياة! ولكن، أيّ حياة تُرتَجى في خيمة؟! إنها هموم ثقيلة، بهيئة ركيكة، تبنيها بيديك، وتزيد عليها بدعاء كل يوم، لعلها تؤول بيتًا، تؤويك مستورًا ليلًا ونهارًا، تحميك من حرّ صيف وبرد شتاء، ولكنها فقط تمتص كل طاقتك.

في النهاية، إنها خيمة، والخيمة تبقى خيمة، لن تكون بيتًا يومًا.

استوقف تفكيري الآن صوت إطلاق نار! نظرت حولي متسائلة، و إذا به يزداد رويدًا رويدًا، وقيل: هذا روتين رفح اليومي حين يحين عبور شاحنات المساعدات، فإنها طوال طريقها تتعرض للهجوم والسرقة!

الناس يتدافعون، ويحاول كلٌّ أن يتفادى الضرب، حقًّا أتساءل: من جعلهم بهذه الوحشية؟! ما الذي يُدرِكونه عمّا يفعلونه؟!

هذا ما تفعله بنا الحرب، تضغطنا حتى لا نعود ندرك شيئًا، حتى صار كل غريب معتادًا، وكل قبيح مرغوبًا، مما لم نكن لنستحسنه قبل هذه المصيبة. أتساءل: كم دمعة يجب على العالم أن يذرفها، كي تعيش الأرض المحتلة بأمان؟ هل يعيش الإنسان آمنًا في سجن؟! ولكن، غزة ليست سجنًا، بل وطنٌ لأحرار بلا حرية.

يرى العالم ما نقاسيه بين الخيام، وفي البطون الخاوية، فيكتب الرثاء! وأراه رثاءً مشتركًا؛ تراهم يبكون على فلسطين، وفلسطين لا تبكي على أحد.

إنها تبكي دمًا وبطولة، وتنتحب أكفانها أشلاء، منذ وعد بلفور والحكومة الإنجليزية، وغزة تبكي لا على أحد.

بكاء غزة مختلف.. إنها لا تكفّر عن ذنوبها به، بل هو كما قيل: نموذج عملي، وعنوان إرادة.

أتساءل في قرارة نفسي: هل الدموع سلاح؟ أم أن هذا أقصى ما يستطيع العالم تقديمه لنا؟

وأصدق ما يعبّر عن ذلك قول الشاعر الفلسطيني محمود درويش:

"لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس، ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد".

فلماذا لا يبكي العالم على غزة كما تبكي هي؟!

أطفالها في الأكفان والخيام، بينما أطفال العالم في المدارس، ولم يعد أطفالها أطفالًا كما كانوا.. أهو طفلٌ من يشعر ببربرية الأيام وقسوة الثواني التي تمرّ عليه، وهي تشير إلى طفولته الباكية باستهزاء؟

أو ذلك الذي تسلل غضبه الحارق من سماعة راديو حديث، وهو ينادي على العروبة، فلم يجبه أحد، سوى أخبارٍ أحرجته بأنهم "يبلورون صفقة"! ليقهقه باستهزاء، وخيط أمل في عينيه، لأنه يعرف: "بعد كل صفقة، صفعة".

ربما اختلط الأمر على ذلك الطفل، وربما تلك الشهقات صداها من مكانهم. يحقّ للأمر أن يختلط؛ فحتى غير المسلمين شاع صدى دموعهم في سماواتنا، فقضية فلسطين بالنسبة لهم "قضية إنسانية"، والقضايا الإنسانية، غالبًا، قضايا مزاجية، قابلة للنسيان بمرور الأيام.

لكن في الحقيقة، قضية فلسطين هي قضية المسلمين؛ فهي مَعيش الأنبياء، وفيها مسرى الرسول، ومن أقصاها عُرج به إلى السماوات السبع.

وكما قال المباركفوري في الرحيق المختوم:

"إنّ الإسراء وقع إلى بيت المقدس لأن اليهود سيُعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية، لما ارتكبوه من جرائم، لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب".

وفي ذلك الحين، انتقلت القيادة إلى رسول الله ﷺ.

واليوم، عاد التاريخ ..

عدوان اليهود، وغدرهم، وتسلّطهم على بيت المقدس، ووحشيتهم على المسلمين، و إن سطوة الباطل ليست إلا سطوة مؤقتة، وكلما اشتدّت قسوتهم على ظهورنا، علمنا أن الله يُعدّنا لأمرٍ عظيم.

لا سيّما وعده الربّاني للكافرين: "ونراه قريبًا".

وقد قرأتُ أن الإسرائيليين يدركون حقيقة واحدة:
أن القضية العربية هي التي تُحدّد مصيرهم، وهي التي تُشكّل أو تُشارك في تشكيل وجودهم.

ميثاق الظلم والعدوان

اجتمعوا في خيف بني كنانة، وتآمروا على بني هاشم وبني المطلب ألّا يُناكحوهم، ولا يُبايعوهم، ولا يُجالسوهم، ولا يُخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يُكلموهم، حتى يُسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل.

فكتبوا صحيفةً ضمنوها عهودًا ومواثيق، وعلّقوها في جوف الكعبة، وتمّ بذلك ميثاق الظلم.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنُهم وكافرُهم، وحُبسوا في شِعب أبي طالب.

ثلاثة أعوامٍ في الحصار، اشتدت فيها الكُربة، وقُطعت عنهم الميرة والمؤن، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة، ولا بيعًا يُعرض إلا سارعوا فاشتروه، ليمنعوا وصوله إليهم.

حتى بلغهم الجوع مبلغًا عظيمًا، فاضطروا لأكل الأوراق والجلود، حتى كان يُسمع من وراء الشعب بكاء نسائهم وصبيانهم، يتضاغون من الجوع.

وكان ما يصلهم من طعام لا يصل إلا سرًّا، ولا يخرجون لشراء الحاجات إلا في الأشهر الحُرُم، وإن وجدوا شيئًا من العِير القادمة إلى مكة، رفع أهلها أسعارها أضعافًا، فلا يقدرون على شرائها، وكان أبو طالب يخشى على رسول الله خوفًا عظيمًا.

لكن أهل قريش انقسموا بين راضٍ بهذا الميثاق وكارهٍ له، فسعى إلى نقض الصحيفة من كان كارها لها.

فقال زهير بن أبي أميّة:

"يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة."

وهكذا كانت شجاعته..

ورغم أنّ ذلك الميثاق قد صار من ماضٍ بعيد، إلا أن آثاره ما تزال تتكرر في أمّتنا، دون أن تحرّك في أحرارها ساكنًا!

فها هو التاريخ يعيد نفسه في غزة!

ورغم أن موقع فلسطين استراتيجيّ، تحيط بها دولٌ عربية: سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، ومصر، فإنّ ميثاق الظلم لم ينفكّ عنها طوال الحرب.
وذاك الصهيوني يقول: "مليون عربي لا يساوي ظُفر يهودي!" لكنه يعلم، لو اجتمع العرب والمسلمون، لما بقي لذلك الظفر وجود! لكنهم نائمون جميعًا.

وقد نال أهل شمال القطاع ما ناله بنو هاشم وبنو المطلب: أكل أهله العَلف والشعير، ومات الأطفال جوعًا في ثلاثة أشهر..
وتُعاد الكرة ذاتها!

احتكر التجّار البضائع، ورفعوا الأسعار أضعافًا، وسارعوا لشراء أو سرقة كل ما يدخل، ليُتاجروا بآلامنا.
لقد سلبونا أغلى ما نملك، وأغلى ما يُكمل إنسانيتنا.
ذقنا ما يكفي لتبييض صحفنا المسوّدة، لكن قلوبنا لا تزال سوداء:
إمّا احترقت بنار الحرب، أو ضغطنا حتى نسينا أمر الله: "يا نار كوني بردًا وسلامًا."

أما أولئك التجّار، فما خطواتهم إلا خطوات الشياطين، يأمرونهم بالسوء ويُضلونهم وهم لا يشعرون.

لقد أورثوا قلوبهم للشيطان، رغم أن باب الله مفتوح يغسلها لمن شاء.

ومن قبلهم فعلوا مثلهم، فصاروا عبرةً لأولي الألباب.

فهل قيمة الإنسان دنيئة إلى هذا الحد؟

أم أن الدنيا قد عظُمت في أعينهم؟

لقد صار التجّار من فرط الشبع جياعًا!

فهلّا جعنا بكرامة؟

فنكفّ عن الظلم!

فمن سينقذ أمثالهم حين يأخذهم الله بالعذاب الشديد؟

حتى التحالف الإسلامي حين أتى، بدا وكأنه نُسخة مقلوبة من ميثاق العدوان، و إن لم يُكتب في ورقة معلّقة، لكنه كان قائمًا.

وكانت المجاعة –وما زالت– تُقتلنا عمدًا، حتى يصبح جلّ اهتمامنا في لقمة العيش، وننسى ما تبقّى من الحقوق، فنتهيّأ للاستسلام لهم!

وها نحن نخضع لمُرادهم في كل مصيبة! دون أن يطلبوا، نلبي! نشُدّ الرحال، وكلمات الحق تموت على شفاهنا، والجميع يركض خلف الطعام، ولم يعد يهم انتهاء الحرب، ولا الحياة كإنسان حر.

بل صار البقاء تحت رحمة الصهاينة في الطعام والشراب مقبولًا، والفرحة مسجونة في أيديهم.

لكن تدور عقارب الساعة، وستدقّ عند الموعد الربانيّ الحاسم، عندها ستنتهي تلك المُهلة القليلة لا محالة.

السفينة

كم مرة ارتدينا معطف السفينة المغلوبة على أمرها؟
السفينة التي حطّمتها القليلة لكننا – نحن أصحاب القلوب السوداء – نحكم على الأمور بسطحيّة! منذ أن بدأت هذه المصيبة التي جمعتنا، وحياتنا تقف على أطراف أصابعها،
ترنو إلى الدُّجى..
فلا أدري:
هل أكتب عن هذه المصيبة الآن؟
ونظنّها تلاشت كذكريات؟
وهي تشتعل في رؤوسنا حربًا بيضاء!

أذكرُ ذلك اليأس، بتفاصيله العانسة،
ونحن نسأل بذبول:
متى ستعود أيام الخير؟

لكن جذوره لم تنقشع من أجوافنا،
فإلى اليوم، لا تزال تلك المصيبة تحرق ما تبقّى من شَلوٍ وجَناح..
ويدور نفس السؤال، وقد اختلطت رائحته برائحة الدماء العربية والجثث.

بين اثنين:
واحدٌ ذاق مرارة الحرب،
وآخر خاوي المعدة،
وثالث جِيْر عليه .
وما كانت تلك الآفات طبعًا للعرب يومًا!
أين هو ذاك الزمان الذي كان فيه الأخ لا ينام شبعان وأخوه يتألّم جوعًا؟
بل في مثل هذا الوقت، لم يعُد أحد يتحمّل أحدًا،
ولم يعُد هناك أيُّ اعتبارٍ لتلك الألحان التي تنبع من أنين الجوع!

لم يتعلّموا القول:
"إنّي أنا أخوك فلا تبتئس"
بل علّمتهم أنفسهم اللوّامة:

"نفسي، نفسي"!

وما الذي غلب أمرَنا؟
غيرُنا أم نحن؟
باتت طُرُقات الموت في غزة كثيرة،
وعلى أبوابها ازدحامٌ شديد لِقبورٍ مؤجَّلة.
ألم يعُد للموت رهبة؟
وهو الآن أقرب ما يكون إلينا!

إن السفينة لا تُحطّمها الرياح إلا إذا توقفت عن مواجهة الريح.
ولو أنها ثبتت أمامها، لما فعلت بها الريح ما فعلت!

ولا نزال نقتتل فيها،
ولو أنّ رهبة الموت تسكننا،
لما قامت حروب،
ولا اقتتل اثنان على شبر أرض.

لكننا ننسى..
أننا راحلون عن هذه السفينة العتيقة،
ولن نعود!

ليتنا نرحم بعضنا!
ونحن نتجرّع قسوة الأيام وظُلمها،
وكل ما يحدث لنا من العدو،
ولا ندري – في هذا الخراب – أيّهم عدونا الحقيقيّ.

ألا يخافون من عذاب الله؟
ألا يخافون من الموت؟
أسئلة كثيرة..
لماذا لا تسألها ضمائرهم؟!

دُنيانا صغيرة..
وفي لحظةٍ مفاجئة،

كلٌّ سيأخذ حسابه.

وفي عجلة هذه الدنيا،
سيحين يوم كلّ واحد،
وكلُّ ساقٍ سيُسقى بما سقى..

رفّ

كنا نعتلي التلّ ثلاثة: أنا، وهي، والشمس التي كانت تلبس التلال تيجانًا ذهبية.
نتحدّث عن أحوالنا لكن الشمس، كعادتها، استأذنت مغربها بصمت..

سارت خيوطها بين تجاعيد وجوهنا المُتسائلة،
ونحن نتأمّل غروبها الذهبيّ الباهت،
المُتناغم مع نبرةٍ فيروزيةٍ تتدحرج في مسامعي،
خارجة من غنائها ..

ربما كنّا، وقتها، نبكي على الوطن بالغناء.

الشيء الوحيد الذي اختلف الآن عن تلك اللحظة،
أننا لم نعد نرغب بالموسيقى بيننا.

حتى أُسدِلَ سواد السماء،
كنا لا نزال نعلو تلك التلّة،
ورأينا الشمس تهرب في عينٍ حمئة.
إنها ترى مناظر قاسية لا نراها،
ترى رفح مليئة بالخيام والدموع،
والظلم يشوّه جمال هذه الأرض.
عبست وتولّت.

في مثل هذه الساعة، وأنا أعود،
تذكّرت حين غربت الشمس – كعادتها – صدى المؤذن ..
حينها عمّ الصمت ..
أو ربّما أنا من غادرت الواقع،
فقد اندمجتُ مع بكائه،
حينها كان يُبتهل بالدعاء،
وأنا أفكّر هذه ليست المرة الأولى التي يتسلّل فيها صوته إلى مسامعي،
ولكنّها ربما المرة الأولى التي أحمله فيها بمشاعر مختلفة،

الجميع بدأ ينزح من رفح دون أوامر صهيوني،
وأنا فقط أفكّر .

الجميع ينزح ..
باتت رفح مليئة بالفراغ،
ومليئة بمشاعر غريبة، ومريبة، والكثير من التشاؤم!

فهل هذه ستكون آخر مرة أسمع فيها صدى المؤذن في رفح،
وأين سنكون في المرة القادمة؟

كانت الأخبار تُشيع عبر الإنترنت عن صفقة،
بطريقةٍ جعلت الجميع يصدّق،
بعد أن قررنا ألّا نصدّق أي صفقة بعد اليوم!
فكل الصفقات كانت تصفعنا ذات اليمين وذات الشمال،
ثم تقذف بنا إلى مجهولٍ سيئ.
لكن هذه المرة، بشكل مريب،

قالوا إن الصفقة "تبلورت"،
وأننا فقط ننتظر الإعلان.

وفي ذات الوقت الجميع يهرب من رفح!
أمورٌ غريبة لم نكن نفهمها ..
المماطلة من بني صهيون،
رغم كل ذلك التفاؤل بشأن "الصفقة."
يراؤون النزوح المفاجئ،
وفي الوقت نفس صفقة "وقف إطلاق نار" تبلورت؟!

أعتقد أننا لا نزال نخطئ ..
ونتسبّب في أمورٍ أكبر منّا.

من الذي نشر وأشاع الخوف؟
من قرر فجأة إخلاء أراضي رفح؟
ومن جعل الناس جميعًا يهبّون لحجز أماكن خارجها؟

ها نحن نفعل ما يريدون دون أن يخبرونا.
لقد وضعوا الكلام في أفواهنا،
ودسّوا السمّ في عقولنا وتجاربنا،
حتى لم نعد نُسيطر على الخوف بداخلنا.

ما الذي نبحث عنه في النزوح؟
كل خيبةٍ تستقبلنا بخيمة ..
نبحث فيها عن أمانٍ لا يأتي.

في حروب العالم، ينزح الناس إلى مناطق آمنة ..
أما في فلسطين، فننزح فقط إلى مناطق أقل خطرًا، لا أكثر.

وفي كل مشهدٍ جديد أفكّر:
صرنا فرجةً للعالم.
في كل هجرة، وخيمة، وتغريبة، وفانية أخرى ..

باتت غزة وطنًا مثيرًا للشفقة،
ورغم ذلك، فإن صورتنا البطولية تُزعج العدو،
لأنهم يرون فينا شيئًا صلبًا مستفزًا.

يحدث كل ذلك من المجازر والشهداء دون تكتيم إعلامي،
لكنهم يغطّونها بصفقات كاذبة!

لماذا، إذن، لا يزال الصحفي يؤدي مهمته؟
يبث الصور مستنجدًا ..
لكن مستنجدًا بمَن؟

تلك المشاهد، حين تسقط مآذنها أرضًا،
ولا يُرفع فيها اسم الله ..
لا تُحرّك فيهم غيرة،
ولا تشعل رجولتهم غضبًا!

فهل – أيها الصحفي – ستؤثّر فيهم صرخات الثكالى؟
إنهم ليسوا إلا روبوتات على كراسٍ ناعمة ..

فلتفقد الأمل بهم!
ولتتوجّه إلى الوجهة الصحيحة.

ليس لك في اليأس يد،
ولكن لك في الأمل ألف يد!

فليكن أملك في وجه الله ..
وانظر إلى يده تعمل في الخفاء،
إنما أمره، يراه الصابرون قريبًا.

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلي بلا عنوان

ما قيمة الانسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

محمود درويش

كذبة الأوطان

جعلونا نعتقد أن تلك القطعة المحدودة هي الوطن، وما هي إلا خدعة ليفرّقونا بها.

كانت بيئة فلسطين منسجمة مع المناطق المجاورة، وسكانها موحّدين في اللغة والدين والحضارة والتاريخ، لكنهم حاولوا تفتيت هذه الوحدة، وقسّموها إلى دول ووحدات سياسية متنازعة، حتى يستمرّ الشقاق والخصام، فيضيع الناس، ويظلّون بحاجة إلى هذا الاستعمار.

وهكذا، خدعونا بكذبة "الأوطان"، وما هي إلا قطعة محدودة قاموا بتقسيمها، ثم استمروا بالتزييف وقالوا: "لك حقوق"، والحقيقة أنك لا تساوي عندهم ثمنًا بخسًا.

والدليل يُبثّ ساعةً بعد ساعة، فكل تلك الأعداد من الأرواح في غزّة، تجاوزت 60 ألف شهيد.

هكذا لطالما رُخّص الإنسان وقُزّمت قيمة الإنسان.

ومن المسؤول؟

إنهم جميعًا متهمون: من يبيع العروبة، ومن يبيع دينه، ومهمته الحقيقية التي خُلق لأجلها، واشترى هواه.

نظنّ أنفسنا أحرارًا، لكننا في الحقيقة لا ننفذ إلا مشيئتهم، مشيئة الإفساد بكل شيء.

نُحارب من يريدون أن نحارب، نقتل بعضنا ونفعل ما يطلبون، تركوا لنا المهمة القذرة لنؤديها، ونحن نؤديها بنشاط، بل ونتنافس على أدائها.

ولماذا تأخّر النصر؟

لهذا السبب.

لأن قضية بيت المقدس هي قضية شرف، ولن ينالها إلا أصحاب الشرف، لا أولئك المتقاعسون على الكراسي.

التحالف الإسلامي الآن جسد بلا روح.

واليوم، بل ومنذ زمن، والأرض والأشعار الفلسطينية تنادي الأحرار المسلمين من كل بقاع العالم لكنهم بلا إرادة.

السادس عشر من مايو

تنفُّس ثقيل..

هناك من وضع أفئدتنا إلى جوار عقارب الساعة اللاسعة عمدًا، استيقظنا برعبٍ على صوتِ حزامٍ ناري يمتدّ على طول القطاع ليلًا.

بعد أن عادت راحة البال – أو بالأحرى عاد البال هنيهة – والراحة لم تزل تطرق الأبواب.. عادت الحرب من جديد.

حرب..

ما الذي تعنيه هذه الكلمة؟

أحداث قاسية تتكرر، وزمن متوقف عند أوامر الإخلاء، وقلب يطلق نبضات الموت مع كل استهداف جوي، ولا يقف المعنى عند هذا الحد ..

السوق الذي تحوّل إلى مزاد علني، وساحة حرب أخرى من الأسعار على مساكين الشعب..

إنها ليست المرة الأولى التي نشدّ فيها الرحال إلى المجهول.
لا نعلم من سيستقبلنا: الخيام أم الذل.
لكنها المرة الأولى التي أكتب فيها الرثاء ..
لأن الأيام عادت الكرة علينا..

ننـزح مرة أخرى..
نجوع مرة أخرى..
نُعرى مرة أخرى..
ونتحدى كل ذلك بعد أن هرمت ضلوعنا.

عاد الأمس من جديد، يحمل اليوم المكرّر..
إنها نفس الأحداث العِجاف التي تمنينا لو نقتلعها من رؤوسنا، لكنها أكثر عنادًا.
ها هي تتكرر، ونحن أصلًا لسنا إلا ورقة خريف لم تتحمّل التمسك بأغصانها منذ آخر عاصفة.

أتذكر كيف انتهت الحرب؟

لقد خضنا الحرب الحقيقية داخل أنفسنا..

عندما عدنا إلى بيوتنا ولم نجدها تنتظرنا.

رأيتها ركامًا لم أصدق أنها هي، تلك التي جمعتنا، وعشنا فيها سنواتٍ من السهر، والتسامر، واستقبال كل مولود، والغناء لكل خرّيج، وشرب الشاي في الجمعة العائلية، وبناء الأحلام، وتجريب وصفات المأكولات والحلويات .. نعم، هي نفسها التي كنّا نشتكي مرارتها، واليوم نبكي أطلالها.

صرنا نتساءل: هل تهنا ربما؟

لقد تركناها بأبهى حلة وعدنا، نعم عدنا، لكن لم نجد فيها ملامحها، أدركنا حينها أن البيوت لا تنتظر أصحابها إن هجروها في سبيل الله.

لكن اليوم الذي عدنا فيه، كان أصعب من ذلك اليوم الذي خرجنا فيه منها.

كان هناك خيط أمل حين غادرنا، أننا سنعود، وستحتضننا بكل شوق، لكن حين عدنا.. عدنا مشيًا حينها رأيتُ الشمس تغادر، وسمعت صوت التكبير من الحشود.. كان يوم صفقة لكنه فقد لذته حين لم نجد بيتنا ينتظر.

كأنه يقول لنا: لقد تأخّرتم!

ألم تكن الرياح تحمل أنيننا، وتوصل لك رسائلنا الدامعة يا بيتنا العتيد؟

بعثنا لك سلامًا في غربتك، لكنك أرسلت لنا رسالتك متأخرة، عابسة "سلامٌ علينا في غيابك."

هل يشتاق المرء إلى حجر؟

إنه يشتاق إلى تلك المشاعر: الأمان، والطمأنينة، حتى وسط الحزن؛ لأن الحزن المقرون بالأمان أهون بكثير من الغربة والدمار.

الخاتمة

أختم هذا الكتاب بأن الكثير من الأشياء تزداد قيمتها حين ترحل، والكثير من الوجوه ليست إلا أقنعة، والكثير من الحروف مجرد كلمات فارغة.

ستشتاق إلى كلمات صادقة،
إلى تناول المثلجات في الشتاء مع أحدهم،
إلى أعياد الميلاد مع الأقارب،
إلى إلقاء الشعر في ساحة المدرسة،
وستحنّ إلى صديق قديم،
و إلى طعم رغيف خبز دافئ تمضغه بأمان.

كل ذلك لم يعُد في غزة..
نحن اليوم نحارب أيّامًا عجافًا، ووجوهًا بلا أقنعة.

تم بحمد الله.